الفرويدية واللاكانية: نظرة متأخرة

كمال بكداش*

تاريخ الورود:	٢٦ أيار ٢٠٢٥
تاريخ الموافقة على النشر:	٢٤ حزيران ٢٠٢٥
تاريخ التحرير والمراجعة:	٢٥ تموز ٢٠٢٥
تاريخ النشر:	١٥ أيلول ٢٠٢٥

ملخص

يتناول البحث تجربة طلاب علم النفس في الجامعة اللبنانية خلال الستينيات والسبعينيات مع مؤلفات فرويد، ويتوسّع في عرض مسار الفرويدية وصولًا إلى لاكان. ينطلق من كتاب "تفسير الأحلام" الذي مثّل مدخلًا أساسيًا لفهم مفاهيم مثل الوعي واللاوعي والكبت وتأويل الأحلام الذي استند فرويد في جزء كبير منه إلى أحلامه الشخصية، مقدّمًا بذلك نموذجًا للتحليل الذاتيّ. ويتجلّى الهدف من هذه المؤلفات إتاحة أدوات للطالب والقارئ كي يفهم آلياته النفسيّة الخاصة، ويختبر التحليل الذاتي بدرجة من التحرّر من نوازع مكبوتة.

يطرح البحث أسئلة حول مدى واقعيّة النظريات الفرويديّة وإمكانية التحقّق منها في التجربة اليوميّة. من هنا يبرز انتقال فرويد من نظرية الإغواء – التي كانت تعزو العصاب إلى اعتداءات جنسية مبكرة – إلى عقدة أوديب التي جعلها لاحقًا ركنًا لا يُستغنى عنه في التحليل النفسي. يوضح النص أن هذا التحول أتى نتيجة عوامل اجتماعية وشخصية مرتبطة بعزلة فرويد وسعيه إلى التوافق مع

* أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة اللبنانية، قسم علم النفس، لبنان

محيطه. كما يناقش النص علاقة فرويد باللغة، حيث تكشف أعماله اهتمامًا خاصًا بزلات اللسان والنكات وبنية الأحلام اللغويّة، مما فتح الباب أمام لاكان الذي أعاد صياغة اللاوعي بلغة مستندة إلى مفاهيم علم اللغة عند دو سوسور. إلّا أنّ أسلوب لاكان المعقّد والغامض، وإن منحه هيبة في الوسط الباريسي، أدى إلى تشويه الفرويدية وأثار نقدًا واسعًا حتى بين الفلاسفة الذين عجزوا عن فهم مقولاته.

تظهر نتائج البحث أنّ إسهام فرويد الجوهري يكمن في تحديد دور اللاوعي وربطه ببنية الذاكرة الإنسانية، وهو ما دعمته الممارسة العيادية والملاحظة اليومية. في المقابل، قدّم لاكان تصورًا مبهَمًا للاوعي بوصفه "لغة"، غير أنه وقع في التباس مفاهيمي مع نظرية دو سوسور حول اللسان والكلام. وبناءً على ذلك، يدعو النص إلى العودة إلى وضوح التصوّر الفرويدي وتجنّب الانجراف وراء الغموض اللاكاني الذي حذّر منه فلاسفة مثل فيتجنشتاين.

الكلمات المفاتيح :الفرويديّة، تفسير الأحلام، عقدة أوديب ، نظرية الإغواء، اللاكانيّة.

مقدّمة

كان طلاب علم النفس في الجامعة اللبنانية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي – لا سيّما منهم من تملّكهم نوعٌ من الشغف باختصاصهم – يرجعون لإشباع شغفهم وتعزيز معرفتهم إلى مؤلفات بالعربية والفرنسية مقترحة من أساتذتهم أو مختارة منهم بالقصد أو المصادفة، ومن بين هذه المؤلفات كتاب كان له تبجيل خاص بالنظر إلى ما يُشاع بين الاختصاصيين عن دوره المهمّ في تطوير نظرية فرويد في الحياة النفسية، إلى الحدّ الذي يوصف فيه أنّه يحتوي على كل ما هو أساسيّ في هذه النظرية – إنه كتاب "تفسير الأحلام" لفرويد الذي ترجمه إلى العربية عن الفرنسية والإنكليزية المحلّل النفسي المصريّ – الفرنسي مصطفى صفوان (فرويد، ٢٠٠٣).

ينطلق الكتاب في مطلعه بعبارة لا يُمحى أثرها في ذهن قارئه الشغوف: "الحلم بنية نفسية ذات معنى"، ثم تتوالى الفصول التي تحمل في نصوصها مفاهيم في غاية الروعة، واضحة، ومدعّمة

بالأمثلة، ويمكن حتى للقارئ العادي المتأني أن يفهمها. بل وأن يختبرها في حياته النفسيّة الخاصّة: الوعي، اللاوعي، الكبت، تأويل الحلم، المحتوى الظاهر للحلم ومحتواه الكامن، وظائف الحلم: تحقيق رغبة، حارس للنوم.. عمليات الحلم: الإزاحة، التكثيف... إلخ.

والأكثر إثارة وتشويقًا في الكتاب أنّ معظم الأحلام التي يؤوّلها فرويد هي أحلامه الشخصية، مما يُعدُّ نوعًا من التحليل الذاتي لفرويد نفسه، والطريقة التي يستخدمها في هذا التأويل هي تسجيل هذه الأحلام كتابيًا، ثم تحليل النّص اللغويّ الناتج من وصف مشهديّة الحلم، وذلك في ضوء ذكريات الحالم الماضية أو ما يمكن أن يستدعيه من ذكريات.

توالت في المرحلة الجامعية قراءات طلاب علم النفس لمؤلفات فرويد المترجمة إلى العربية (بكداش، ١٩٨٦): كتابات واضحة – باستثناءات قليلة – ، أمثلة توضيحية، عرض حالات، أسلوب – ولو مترجمًا إلى العربية – برهاني، إقناعي، متدرّج من الأبسط إلى الأعقد، اعتذارات متكرّرة عن صعوبة برهنة فكرة ما أو توصيل فكرة ما... إلخ.

والأشد تشويقًا في قراءة هذه المؤلفات أنها تمدُّ القارئ بمعارف يتيسَّر التعرّف إليها – إلى حد ما – من خلال استبطان نفسه، وتعينه – بدرجة أو بأخرى – على أن يمارس على نفسه نوعًا من التحليل الذاتي الذي قد يفضي بدوره إلى تأثير تحريري لبعض نوازعه المقموعة أو المكبوتة.

١. هدف العمل وإشكاليته

وتطرح الإشكالية: إلى أي حد مثّلت الفرويديّة إطارًا علميًّا واضحًا قابلًا للاختبار في التجربة النفسية اليومية، ولماذا تحوّلت مع لاكان إلى بناء لغوي شديد الغموض أثار التساؤل حول ما إذا كان قد طوّر التحليل النفسي أم شوّه مرتكزاته الأساسية؟ وتاليًا، يتجلّى **تتبّع مسار الفرويدية كما تلقاها طلاب علم النفس في لبنان هدف هذه الدراسة.** فماذا **كانت الفرويدية تشكل لطلاب ذلك الزمن؟**

بدت لهم النظريات والمفاهيم الفرويدية في ذلك الوقت مقنعة بقوة لرسوخها إلى أساس واقعي، بل لإمكان اختبارها أو التحقّق من بعضها في الحياة النفسية والسلوكية العادية للذات وللآخرين. هذا بالإضافة إلى أن أسلوب التعبير عنها أسلوب جذّاب، برهاني وإقناعي وواضح في معظم الحالات.

بدت الفرويدية (الفرويدية، د.ت.، ص ٩٤٠–٩٥٨) كما ظهرت في بعض مؤلفات فرويد بأنها نظرية تبحث عن معنى بعض الظواهر النفسية، كالأعراض العصابية والأحلام وحالات النسيان وزلات اللسان والأفعال المغلوطة. ويتمثّل معنى إحدى هذه الظواهر في النيّة التي تكمن خلف هذه الظاهرة، أي بعبارة أخرى في رغبة معينة. ويسوق فرويد في عدد من مؤلفاته ما لا حصر له من الأمثلة والحالات التي تقيم البرهان على هذه النظرية وتيسِّر على القارئ المتأني الاقتناع بها.

كما بدت نظريته "الموقعية" الأولى (الوعي – ما قبل الوعي، اللاوعي) واضحة باختبار الذاكرة: تشكّل العناصر الحاضرة في حقل الوعي عناصر واعية فيما تشكّل العناصر المختفية أو المبعدة عن حقل الوعي عناصر لا واعية. وبعض هذه العناصر لا واع بصورة مؤقتة ويمكن في كل لحظة أن توضع بتصرف النشاط الواعي، ويطلق على هذه العناصر اسم ما قبل الوعي.

هذا في ما بدا أنه يصعب صعوبة بالغة بدون ما يسمى النظرية "الموقعيّة" الثانية (الأنا – الأنا الأعلى – الهو) ترتيب أو تنظيم الوقائع النفسية وتفاعلاتها في إطار واضح ومفهوم: وتتناول هذه النظرية بوجه خاص التعارضات والتفاعلات بين القوى المتواجدة في الصراع النفسي: فالأنا قوة تمثِّل موقعًا معينًا بالدفاع عن مصالح الشخص وينخرط لذلك في صراع مع الحياة الجنسيّة وذلك تحديدًا لأن بعض الرغبات الجنسية تهدّد بطريقة من الطرق المصالح التي تُعنَى الأنا بالحفاظ عليها والدفاع عنها.

ولذا، تستجيب الأنا لهذا التهديد بالقلق وتقوم في سبيل تجنّب هذا القلق بكبت الرغبات المحرّمة، أي أنّها تبعد عن حقل الوعي التصوّرات التي ترتبط بهذا القلق. هذا فيما تمثل قوّة الأنا الأعلى الموقع الذي يمارس المنع والقمع للرغبات المحرمة ووظائف الضبط والحكم والاتهام التي يوجهها ضد الأنا ويفرض عليه نموذجًا معينًا ويضبط اختياراته ويحكم عليها. وتنشأ الأنا الأعلى عن طريق استدخال الممنوع الأسري والتماهي بالأهل لا كما هم في الواقع إنما هو تماهٍ بما يستطيع الطفل أن يدركه من الأنا الأعلى عند أهله.

وعلى ذلك تعمل الأنا والأنا الأعلى على مواجهة المتطلبات النزوية ويقوم التعبير النفسي اللاواعي عن هذه المتطلبات على مستوى الموقع الثالث الذي يدعوه فرويد باسم "الهو" أو الهذا"، وهو الاسم الذي يشير به إلى أن القوى الفاعلة في هذا الموقع هي قوى لا سيطرة عليها وتتسم بطابع لا شخصي

ومجهول. فالهو هو "الخزان الكبير" للطاقة النفسية الجنسية. أما نظرية إواليات – أو حيل – الدفاع ضد القلق، كالكبت والإنكار، والتبرير العقلاني، والتسامي، والتماهي بالمعتدي... إلخ فتكاد لا يُستغنى عنها لفهم الحيل النفسية التي يلجأ إليها الأفراد في حياتهم العادية لتجنّب القلق. ويمكن التحقّق من بعضها بالاستبطان أو بالمشاهدة المتأنية في حياتنا اليومية.

هذا ناهيك عن مفاهيم يستحيل بدونها أن نفهم شيئًا ذا قيمة في حياتنا النفسية، كالحفزة أو النزوة، والرغبة والميل إلى اللذة والميل إلى التدمير، ومبدأ الواقع، والنرجسية والنكوص والتثبيت، والشعور بالذنب... إلخ.

بدت هذه النظريات الفرويدية وغيرها لدارسيها معقولة، ومدعمة بالوقائع العياديّة ووقائع الحياة اليومية، وجذّابة لقربها من فهم الدارس، غير أن أعمالًا ذات طابع نقدي أثارت الشكوك حول مدى مطابقة بعض نظريات فرويد الأخرى للواقع، ومنها على الأخص تخليه عمّا كان يسمى "نظرية الإغواء" ليحل محلها نظرية عقدة أو مركب أوديب.

٢. فرويد "ونظرية الإغواء" (جفري م.، ١٩٩٦، ص ٧٨-٨٣)

لقد دافع فرويد حتى عام ١٨٩٧ عن "نظرية الإغواء" التي اعتبر فيها في بداية الأمر أن العنصر المكبوت في حالة العصاب هو ذكرى حدث هلعي، وأنّ لهذا الحدث علاقة بالحياة الجنسيّة للمريض، ويتعلّق على الدوام تقريبًا بإغواء جنسي تعرّض له الطفل من قبل أحد الراشدين، ولا يندر أن يكون هذا الراشد أحد أفراد الأهل، ولا سيّما الأب. غير أنّ فرويد لم يتأخر في أن يضع موضع الشك أصالة الذكريات التي يسوقها مرضاه وكان في معظمهم من الهستيريات، وقرّر في نهاية المطاف بأن يرى في هذه الذكريات المزعومة اختلافات خيالية أو هوامات يخفي من خلالها هؤلاء المرض عن أنفسهم حياتهم الجنسيّة الطفليّة الحقيقيّة. وبذلك تحوّل التحليل من الاهتمام بحدث يتعلّق بالواقع الخارجي (الحدث الواقعي) إلى الاهتمام بحدث يتعلق بالواقع النفسي (الحدث الهوامي). فما الذي استدعى هذا التحوّل؟

قدم فرويد عام ١٨٩٦ بحثًا تحت عنوان "أسباب الهستيريا" يتضمن نظريته القائلة بأنّ سبب الهستيريا يكمن في صدمة نفسيّة جنسيّة مبكرة، وهو ما تبلور فيما بعد ليصبح "نظرية الإغواء"، أي الاعتقاد بأنّ هذه الخبرات الجنسية المبكرة كانت حقيقيّة وليست مجرد خيالات، وأنّ لها تأثيرًا مدمرًا ودائمًا

على حياة أولئك الأطفال الذين عانوا منها. لقد كشفت مريضات فرويد ما حدث لهن في طفولتهن – وغالبًا ما كان ذلك يتضمن التعرّض للاغتصاب القسري بواسطة أبائهن – وصرّحن بمعاناتهن النفسية المؤلمة.

شعر فرويد بعد نشر بحثه بالعزلة بين زملائه وكتب لصديقه فلايس بعد أقلّ من أسبوعين من تقديمه بحثه: "أنني أشعر بالعزلة بأكبر قدر تتخيله: لقد صدر الحكم علي بالعزلة، والآن لا يحيط بي سوى الفراغ"، لكن هذه الكلمات حُذفت من الطبعة المنشورة لمراسلات فرويد – فلايس بإيعاز من ابنة فرويد آنا وأطلع عليها كمشرف لفترة من الزمن على إرشيف فرويد كاتب مقالة "فرويد ونظرية الإغواء".

بعد ذلك بخمس سنوات تمنّى فرويد لو أنه لم يكن بهذا التسرّع، فكتب: "... وجدت نفسي في النهاية مضطرًا للاعتقاد بأن مشاهد الإغواء هذه لم تحدث على الإطلاق، وأنها لم تكن سوى خيالات ابتدعتها مريضاتي...". فماذا حدث بالضبط؟ ما الذي تسبب بهذا التراجع عن نظرية الإغواء؟

حين قرأ كاتب المقالة – كمدير مؤقت لأرشيفات فرويد – رسائل فلايس دون الحذف توصل إلى معرفة دوافع فرويد لتغيير رأيه في "نظرية الإغواء": وردت في كتاب "دراسات عن الهستيريا" عام ١٨٩٥ قصة كاثارينا التي تعرضت للاعتداء الجنسي في سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر، ولكن دون أن يُعرف أن أباها هو الذي قام بإغوائها إلّا من خلال ملحوظة أضافها فرويد في طبعة عام ١٩٢٤ من الكتاب: "فقد أصيبت الفتاة بالمرض نتيجة محاولات الاعتداء عليها جنسيًا من جانب أبيها". ومع توالي الحالات الهستيرية المشابهة أصبح فرويد مقتنعًا بأن الأشخاص المسؤولين عن الاعتداء الجنسي على الأطفال الصغار (وبخاصة الفتيات) هم في الأغلب آباؤهم. ولكن فرويد لم يقلّ ذلك على الملأ، ويبدو أن الحظر الأخلاقي على الحديث عن الآباء الذين يغوون أطفالهم قد استمرّ من جيل إلى جيل بين المحلّلين النفسيين منذ عصر فرويد، وهكذا حذفت آنا فرويد من مراسلات فرويد المنشورة، عدة روايات لحالات مرضية قام الأب فيها بإغواء طفله.

انتهى انشغال فرويد بالإغواء بصورة حادة عام ١٨٩٧ في رسالته المهمة إلى فلايس: "... أنا لم أعد أؤمن بنظريتي الخاصة بالأمراض العصابية... ففي جميع الحالات كان الاتهام بارتكاب الفعل المشين يجب أن يلقى على عاتق الأب، على حين أنه بالطبع ليس من المحتمل أن يكون الانحلال الخلقي لدى الآباء بهذه الدرجة من الانتشار".

ترمز هذه الرسالة بوضوح لبداية عملية توافق داخلي مع زملائه، وفي شرحه لهذه الخطوة يكتب إرنست كريس الذي قام بالمشاركة مع آنا فرويد بانتقاء رسائل فرويد إلى فلايس للنشر – في مقدمته للكتاب: "لقد اقترب بشدة من مركّب أوديب، حيث تعرّف إلى ميول الأطفال العدوانية ضد آبائهم"، وبذلك بدّل فرويد اتّجاه تفكيره، ففيما قبل تعرّف فرويد إلى الأعمال العدوانية التي يقوم بها الآباء تجاه أبنائهم – حيث أن الإغواء يمثّل عملًا عدوانيًّا – وفي عام ١٨٩٧ برز اكتشاف جديد، فالأطفال لديهم ميول عدوانية تجاه آبائهم: الميول العدوانية تجاه الآباء (تمنّي موتهم) هي أيضًا جزء مهمّ من الأمراض العصابيّة. فقد حلّت هذه الميول محلّ الإغواء في نظريات فرويد حيث استبدل الفعل بالميول، والحدث الواقعي بالخيالات، حتى أنّ ميول الآباء تجاه أبنائهم تمّ نسيانها.

٣. فرويد ونظرية أوديب

لقد تخلّى فرويد – في رأي كاتب المقالة – عن نظرية الإغواء، ليس لأسباب نظرية أو عياديّة، بل لأسباب شخصية معقّدة لها علاقة بالتوافق مع قيم مجتمعة وشعوره بالعزلة تجاه زملائه، وأحلّ محلها نظرية عقدة أوديب التي رفعها إلى مقام النقاط التي يفضى عدم الاعتراف بها إلى الخروج من دائرة المحلّلين النفسيين، وهذه النقاط، كما كتب عام ١٩٢٢ في إحدى الموسوعات هي "التأكيد على وجود عمليات عقلية لا واعية والالتزام بنظرية المقاومة والكبت وإعطاء الأهمية للحياة الجنسية ولعقدة أوديب. فمن لا يتقبل هذه النقاط في الجملة لا يمكن اعتباره في عداد المحلّلين النفسيين".

ومن المعلوم – من خلال رسائل لفرويد إلى صديقه الحميم ومحاوره النظري ويلهلم فليس Wilhem Fliess أنّ هذه النظرية نشأت أول ما نشأت من استبطان فرويد لمشاعره الإيجابيّة تجاه أمه ومشاعره السلبيّة تجاه أبية، فأسس على هذا الحدس الذاتي معززًا بمشاهدات عياديّة لاحقة نظريّة عمّمها على جميع البشر، وفحواها كما بات معروفًا أنّ الطفل يدرك بوجود الأب أنّه لا يشكل المحور الوحيد في عالم الأمّ وأنّه لا يستطيع أن يزعم بأنّه يمتلك وحده اهتمامّ الأمّ وحبّها. وعلى ذلك وإلى جانب مشاعر الإعجاب والمودّة التي يكنّها الطفل لأبيه تنشأ لديه نتيجة التنافس العدائيّ حول الأمّ مشاعر عدائيّة وتمنيّات بالموت حيال الأب.. كما يصاحب هذه المشاعر والتمنيات خوف هوامي عند الطفل من أن يتلقى نتيجة رغبته الأوديبيّة بالأم عقابًا من الأب بحرمانه من قضيبه، هذا الخوف الذي ينشأ عنه في هوامات الطفل ما يدعوه فرويد بالقلق من الخصاء. أما البنت فيتعيّن عليها من

ناحيتها، أن تنفصل هي أيضًا عن الأم، إلّا أنّ عليها لبلوغ تمام تطوّرها الجنسي أن توجّه اهتمامها الليبيدي نحو شخص من الجنس الآخر. ويمثّل الأب هذا الشخص، ولذا تتحوّل نحوه بأمل أن تضع منه طفلًا، وتمثل هذه الرغبة في انجاب الطفل في نظر فرويد تعويضًا لها عن افتقادها للقضيب. في هذه الوضعية الأوديبيّة يمثل الأب إذًا الموضوع الليبيدي فيما تمثل الأم الخصم الذي تتوجّه نحوه مشاعر البنت العدائية.

لقد أوضحت أبحاث انتروبولوجية في المجتمعات المسماة "بدائيّة" أو "أثريّة" لا شموليّة أو لا كونيّة عقدة أوديب كما وصفها فرويد، والواقع أن هذه اللاشموليّة أو اللاعموميّة يمكن ملاحظتها والتحقّق منها في المجتمعات كلّها، بمعنى أن هذه العقدة قد تنشأ لدى بعضهم في ظروف معيّنة ولا تنشأ لدى بعضهم الآخر في ظروف أخرى.

أضف إلى ذلك – إذا ما انطلقنا من حدس فرويد لمشاعره الإيجابية تجاه أمّه والسلبيّة تجاه أبيه الذي أفضى به إلى بلورة عقدة أوديب – أنّ هذه المشاعر في حالات أسريّة عديدة قد تنقلب ما بين مشاعر الابن الإيجابيّة تجاه أبيه ومشاعر البنت أو البنات السلبيّة تجاهه لسبب أو لآخر، وهو ما دعا بعض المحلّلين لوصف هذه الحالات إلى الحديث عن "الأوديب المعكوس"، وهو ما لا يستقيم عقليًا، لأن الأوديبيْن المعكوس وغير المعكوس ينقض أحدهما الآخر ولا يعود لنظرية أوديب أصلًا ثابتًا وعامًا في الواقع المعيش تستند إليه.

٤. من فرويد إلى لاكان

في ظلّ الانجذاب – غير النقديّ وقتها – إلى الفرويدية أشاع بعض طلاب علم النفس "المتفرنسين" بين زملائهم أنّ ثمة ثورة في التحليل النفسيّ في فرنسا يقودها محلّل نفسي ذائع الشهرة يدعى جاك لاكان.

حمل بعض الطلاب أنفسهم على الفور واقتنوا كتاب لاكان Ecrits (كتابات) (عبد المقصود، ١٩٩٩). والواقع أنّهم لم يكونوا خلال دراستهم قد سمعوا بلاكان ولم يتطرق أحد من أساتذتهم إلى الرجل ولا إلى نظرياته في التحليل النفسيّ. لذا كانت محاولاتهم لقراءة "كتابات" لاكان وإعادة قراءتها مشقّة ذهنيّة ولغويّة لم تسعفهم أن يفهموا شيئًا جوهريًا واضحًا من نظرياته. لذا لجأ القليل من بينهم

إلى مصادر ثانوية فرنسيّة (لاكان، ٢٠٠٦) ومترجمة إلى العربية (بكداش، ٢٠٠٢) لفهم ما يمكن فهمه من هذه النظريات.

تصاعد الاهتمام بالمحلّل الفرنسي الشهير مع مجيء محّلل نفس لبناني لاكاني (المرحوم عدنان حب الله) ليدرّس مادة "التحليل النفسي" وتقديم محاضرات بالموضوع على طريقة سينمارات (ندوات) لاكان الشهيرة في باريس. وها هنا بدأت إيماءات بعض الأساتذة "العياديين" تلمّح في المناقشات الجماعية إلى لاكان وإلى عباراته الملغِزة، وأخذت هذه العبارات تتطاير في قسم علم النفس والصفوف الدراسيّة. وكان لا بد لفهم ما يحدث على الأقل من "العودة" إلى لاكان.

ولكن لما كانت اللاكانيّة محاولة لإعادة تنظيم تصورات فرويد للاوعي حول مفاهيم علم اللغة كان لا بد من "العودة" إلى علاقة فرويد باللغة (صفوان، ٢٠١٦).

تكتسب أعمال فرويد حول حقائق اللغة شهرة كبيرة في: تفسير الأحلام (١٩٠٠)، وسيكوباتولوجيا الحياة اليومية (١٩٠١)، والنكات وعلاقتها باللاوعي (١٩٠٥)، ويبدي فيها فرويد براعة فائقة كناقد نصي في تحليل المرويات اللفظية لتواريخ حالاته المرضية والأحلام وزلات اللسان ونسيان الأسماء والنكات. فالاسم المنسي، مثلًا، قد يرتبط بخبرة مكدّرة، وبدافع ميلنا إلى تجنّب الكدر نُبعد من حقل الوعي ذكرى هذه الخبرة ونبعد معها الاسم المرتبط بها. وقد تعبّر زلة اللسان عن تشوّش نية (افتتاح اجتماع) بنية مضادة (اختتام الاجتماع)، وبذلك تحل في كلام رئيس الجلسة كلمة "أختتمُ" محل كلمة "أفتتحُ". وتلجأ النكات اللفظية – وهي أكثر النكات بدائية لتوليد الضحك – إلى طريقة التلاعب بكلمة ترتبط صورتها الصوتية الواحدة بمعنيين مختلفين: كنكتة الرجل الذي همَّ بأن يجلس على **القهوة** فجلس على **الشاي**؛ أو التلاعب بكلمتين مختلفتيْ المعنى بينهما تشابه صوتي: كنكتة الرجل الذي ذهب إلى **القلعة** فوجدها **لابسة**.

تؤدّي عمليتا التكثيف والإزاحة دورًا أساسيًا في بناء صور الحلم: فالتكثيف، في الحلم، عملية يتاح بها لمحتوى ظاهر واحد التعبير عن عدة محتويات كامنة يقوم بينها ارتباط بالتشابه، كأن يمزج الحلم الملامح الحقيقية لشخصين أو أكثر في صورة موحدة، أما الإزاحة فعملية ينقل بها دافع معين أو انفعال بالذات من موضوعهما الأصلي إلى موضوع بديل يقوم بينهما ارتباط بالتجاور أو التلازم. ومثال ذلك أن الخوف المرضي من حيوان معين (كالحصان مثلًا) في حالة بعض الأطفال قد يكون

خوفًا منقولًا من شخصية الأب الذي يهدّد الطفل بالخصاء لرغبته في الأم – وفقًا للموقف الأوديبي – إلى الحيوان موضوع الخوف.

ولعل هذا الاشتراك بقوانين الترابط (الترابط بالتشابه والترابط بالتلازم) بين عمل الحلم وعمل اللغة ما حدا إلى افتراض التناظر بين عملية التكثيف وأسلوب الاستعارة المبني على علاقة المشابهة بين المستعار منه والمستعار له، وبين عملية الإزاحة وأسلوب الكناية المبني على علاقة التلازم بين المكنّى والمكنّى منه.

لقد ذهب فرويد في علاقته باللغة إلى أبعد من ذلك: فمن الأمور المحيرة في الحلم و"التي تدعو إلى العجب خاصة" أن "الحلم ببساطة لا يعبّر عن مقولة التناقض، وأنه يبدو جاهلًا لفكرة النفي، وهو يبرع في التوحيد بين الأضداد ويمثلها بشيء واحد"، كأن يرمز "الغصن" في أحد الأحلام لفكرتين متضادتين من أفكار الحلم: الطهارة والنجاسة. ربط فرويد بين العقل الحالم الذي لا يعرف التناقض، وبين ما اعتبره حالة "أصلية" للغة الإنسانية، حيث تحمل الألفاظ معاني متضادة في وقت واحد، أي ما يُعرف بالأضداد.

على ذلك تظهر علاقة فرويد باللغة في أعماله النظرية وحتى العيادية بصفته محللًا نفسيًا علاقة وثيقة للغاية. ومن هذه العلاقة انطلق لاكان في "عودته إلى فرويد" ليعيد ترتيب تصورات فرويد للاوعي حول مفاهيم علم اللغة.

٥. العودة إلى لاكان

يبدو اللاوعي في كل هذه الحالات – لاسيّما في الأحلام والأعراض العصابية وغيرها– طلقًا ويفصح عن نفسه في صوَر متعددة، ويلحّ علينا لنسمعه في أحلامنا، وفيما ننساه، وفيما نتذكره بصورة مشوّهة، وفي زلات اللسان والقلم، وفي النكات والرموز... إن الطاقة النفسية التي تسبِّب الكبت وتحافظ على استمراره، تواجهها طاقة أخرى تسعى إلى دفع محتويات اللاوعي المكبوتة إلى مجال ما قبل الوعي – الوعي: وهكذا يبدو اللاوعي متكلّمًا – بلغة مجازية على الأرجح – رغم الكبت والرقابة.

من الواضح من ناحية أخرى أن اللغة هي الأداة الوحيدة للتحليل النفسي، ولا يُتاح اللاوعي، سواء للمحلّل وهو يحكي أحلامه وخيالاته أو للمحلِّل وهو يؤوّل كلام المحلّل، إلا في صورة لغوية، بمعنى أنه لا يمكن أن نظفر بحالة لاواعية محضة قبل – لغوية.

تمثِّل الأعراض أفكارًا وذكريات مكبوتة في الذاكرة اللاواعية، ويوجد مفتاح معناها في عملية التحويل، الإيجابي أو السلبي على شخص المحلِّل والتي يترجم فيها المريض الأعراض، والخوافات إلى كلام موجَّه إلى المحلّل. وهكذا ينظر إلى المحلل بوصفه الشاهد على بوح المريض أو بوصفه الآخر الذي يتوجه إليه المريض بواسطة اللغة. إن ما يقوله المحلل في الرد على كلام المريض ويكون له تأثير على المحلَّل ويستحوذ عليه يمثل معنى اللاوعي لديه.

أتاح إبراز هذه الوقائع العيادية إعادة تأطير العلاقة بين المحلل والمحلّل في إطار تبادل لغوي، ومن ثم تنظير هذا التبادل في ضوء مفاهيم علم اللغة لدى فردينان دو سوسور التي هيمنت منذ الخمسينيات في فرنسا إلى نهاية القرن الماضي تقريبًا، واستُعيرت هذه المفاهيم إلى التحليل النفسي لدى لاكان.

يميز دو سوسور (Saussure, 1916) في اللغة – وهي مَلَكة عامة لجميع المتكلمين بألسن مختلفة – بين مفهومين: اللسان والكلام: اللسان نظام من العلامات، والكلام هو التحقيق الفردي للسان. وتمثل العلامة اللغوية – ولنقل الكلمة – في رأي دو سوسور ارتباطًا اعتباطيًا أو تحكّميًا بين مفهوم (أو فكرة) وصورة سمعية، ولكن بمجرد إرتباط المفهوم (المدلول) بالصوت (الدال) تنشأ بينهما علاقة اعتماد كل منهما على الآخر اعتمادًا كاملًا.

غير أن لاكان يستخدم الصيغة S/s (الدال على المدلول) لإثارة المشكلة المستعصية المتمثلة في حالة المدلول ودوره الدقيق. فالخط الفاصل بين الرمزين تمثل، في رأي لاكان، تصويرًا لشق لا يمكن إزالته. ذلك أن المدلول، في تعليق لاكان، "ينزلق" في الواقع، أسفل الدال وينجح في مقاومة المحاولات التي تحاول تثبيت حدوده. وبذلك نرى تفوّق الدال على المدلول، بمعنى أن البحث عن المدلول في صورته المحضة، أي البحث عن بنيات المفاهيم أو الأفكار الأصلية خارج الكلمات بحث طائش. ذلك أن "السلسلة الدالة" ذاتها هي موضوع الاهتمام الحقيقي عند المحلل النفسي، والعلاقات

التي يمكن ملاحظتها في تلك السلسلة بين الدوال هي أوثق الشواهد على البنية النفسية. وهذا ما لا نجد ما يقابله عند فرويد.

فالواقع أن التمييز بين الدال والمدلول – دون استخدام المفهومين – نصادفه في التمييزات التي قدمها فرويد نفسه من خلال المقابلة بين المحتوى الظاهر والمحتوى الكامن، بين الوعي واللاوعي، بين صور الحلم الظاهرة وأفكار الحلم الكامنة، بين الأعراض العصابية والرغبات المكبوتة. فهو يرى، مثلًا، أن صُور الحلم الظاهرة (أو الدوال) تحتاج إلى أفكار الحلم الكامنة حتى يتضح معناها (أو مدلولها)، ولا بد من مطاردة هذا المعنى حتى وهو ينأى عن المشهد الظاهر.

ولكن لاكان يرى، على خلاف ذلك، أن هذا التأرجح بين الدال والمدلول قد يحوّل الأنظار عن الأول إلى منطقة "المدلول" المائعة المتخيّلة، وأن العلاقة بين الدوال هي أهم المصادر التي تقدّم للمحلل قدرًا هائلًا من المعلومات. ولذا رأى في قطبيْ الاستعارة والكناية في علم البلاغة مفتاحًا لنموذجيْ الارتباط بين الدوال أو في السلسلة الدالة، وهما يناظران أو يتكافآن على التوالي مع التكثيف والإزاحة لدى فرويد.

وفي هذا الإطار تتلاشى في فرضية لاكان "يُبنى اللاوعي كلغة" الأسبقية أو حتى التمييز بين اللاوعي واللغة باعتبارهما مشمولان بنظام رمزي واحد: فاللاوعي، بقدر ما نراه ونسمعه في الكلام والأعراض والأحلام وغيرها، تحكمه قواعد منطق الدال، ذلك "إن كلمة "يُبنى" وكلمة "كلغة" تعنيان بالنسبة لي الشيء نفسه".

على ذلك يبدو اللاوعي اللاكاني أبعد ما يكون عن سلفه الفرويدي. ذلك أن فرويد ميز بدقة بين "تمثيل الكلمة" Répresentation du mot و"تمثيل الشيء" Répresentation de chose وصاغ مفهومه للاوعي كحقل عمل يخص تمثيل الشيء منفصلًا عن الكلمة المناظرة، فيما يمنح لاكان الأسبقيّة لتمثيل الكلمة، وهذه الأسبقية التي يعزوها لاكان للدال في الحياة النفسية تصاحبها إعادة تعريف المصطلحات الفرويدية، ويدعو لاكان حقل الدال هذا الذي يؤدي دورًا أساسيًا في تكوين أو بناء الذات، بالنظام الرمزي، وهو النظام السائد في ثلاثية الرمزي – الخيالي – الواقعي. هذا فيما ينمو الخيالي من خبرة الرضيع بالأنا المرآوية ويمتد إلى خبرة الراشد بالآخرين وبالعالم الخارجي. ويسود الخيالي حيثما يوجد تماهٍ – سواء كان في الذات أم كان بين الذات والآخر. إلا أن الرمزي

يقتحم الخيالي وينظّمه ويوجّهه. والواقعي هو النظام الأكثر إثارة للارتباك أو البلبلة، فيكاد لاكان لا يستقرّ على تعريف له قريب من الوضوح، ولعل الأقرب للوضوح أن الواقعي هو ذلك الخارجي بصورة جذرية بالنسبة لسلسلة الدوال، أنه خارج اللغة، ويكتسب بنيته بقدرة الإنسان على إطلاق اسم عليه.

يتضح إلى أي مدى منح لاكان اللغة دورًا مهيّمنًا بصورة غير مسبوقة في مجال البحث في التحليل النفسي.

ولكن ما الذي دعاه إلى ذلك؟

ثمة، لدى أنصار اللاكانية، تفسيرات: ينحو الفيلسوف الماركسي لوي ألتوسير (Althusser, 1994) منحازًا إلى لاكان (وهو محلِّله النفسي في الفترة الأخيرة من حياته) إلى الاعتقاد بأن التحليل النفسي لدى فرويد، رغم مظهره النظري، استمرّ مجرّد ممارسة ممتدّة إلى تقنية، ولكن دون نظرية "حقيقية": "تتتابع نصوص فرويد، حسب ألتوسير، العميقة، والواضحة أحيانًا، والغامضة أحيانًا أخرى، والملغِزة في أغلب الأحيان، والمتناقضة، والإشكالية، والتي تتسلح بمفاهيم يبدو لنا العديد منها مفاهيم بالية لا تتطابق مع محتواها، ومتجاوزَة"، ومن هنا "قال لاكان كلمته الأولى بأن فرويد أسّس علمًا لموضوع جديد: اللاوعي"، وأن هناك "ضرورة للعودة إلى فرويد للبحث وتوضيح النظرية التي ينطلق منها كل ما عداها، التقنية والممارسة". وهذا ما تولى لاكان القيام به.

ويذهب المحلل النفسي اللاكاني المصري – الفرنسي مصطفى صفوان (٢٠١٦، ص ٣٥) إلى أن فرويد "صاغ نظرياته باستخدام دالات اللغة العادية، إلا أنه ظلّ عمليًا الوحيد الذي اشتغل عليها، وحاول إعطاء هذه الدالات معنى دقيقًا ينقيها من الغموض واللبس اللذين تتخذهما من استخداماتها المختلفة"، ثم يضيف بأنه "يجب الاعتراف أن أعمال فرويد كما تركها لنا، تتضمن أكثر من مأزق نظري، كما يجب الاعتراف كذلك أنه كان يتعين انتظار لاكان والمفاهيم التي نحتها، كي نستشف إمكانية إزالة مثل هذه المآزق، من مثل مفاهيم الآخر الكبير، والذات المشطورة بالدال" (ص ٣٥ – ٣٦). ثم يختم "ومن مصلحتنا إذًا العودة إلى قصة لاكان فيما لو أردنا قياس إسهامه في تقدم التحليل النفسي، والتحقق مما إذا لم يعمل بالأحرى على تجميده، أو حتى تشويهه" (ص ٣٦).

من المثير للغرابة فعلًا حديث ألتوسير عن نصوص فرويد "الغامضة أحيانًا، والملغزة في أغلب الأحيان" وأن عودة لاكان إلى فرويد كانت الغاية منها "توضيح النظرية" التي يفتقر إليها فرويد،

والأشد إثارة للغرابة مأخذ صفوان على فرويد بأنه صاغ نظرياته "باستخدام دالات اللغة العادية... وحاول إعطاء هذه الدالات معنى دقيقًا ينقيها من الغموض أو اللبس"، ولذا "كان يتعين انتظار لاكان والمفاهيم التي نحتها، كي نستشف إمكانية إزالة مثل هذه المآزق". غر أن صفوان يتريث في الختام ويدعو إلى التحقق مما إذا لم يعمل لاكان على "تجميد" تقدم التحليل النفسي أو "حتى تشويهه".

سطوة الغموض في أسلوب لاكان

من المسلّم به أن اللاكانية "شوهت" الفرويدية، وأن لغة فرويد "العادية"، بوضوحها وقابليتها للفهم حتى للقارئ العادي تُحسب له وليس عليه، فيما بدت لغة لاكان – التي أثارت الانبهار به على الطريقة الباريسية – لمعظم النقاد لغة مصطنعة، غريبة وغرائبية، غامضة وملغزة وغير قابلة للفهم في معظم الأحيان.

يجب الاعتراف بأن في كتابات لاكان وأقواله استعراضية تغطي على أية أفكار قابلة للفهم: فأسلوبه المبهم يشوش على أكثر القراء احتمالًا للغموض. ولاكان لا يتردد في تبرير "تعذر الإحاطة" بتنظيره بإقامة الشبه بين هذا التنظير واللاوعي بقوله: "كلما كان تنظيري أكثر تمزقًا، ورغبة، ومحددًا بتعداد أكبر من العوامل، وكلما زاد تعذر الإحاطة به وتعذرت قابليته للانتهاء، كلما زاد الشبه بينه وبين اللاوعي الذي يفترضه تنظيري"، ويردد ألتوسير التبرير نفسه بأن لغة لاكان "ليست على غير علاقة مع ممارسته التعليمية: فبما أنه يعلّم نظرية اللاوعي لأطباء، محللين ومحلَّلين، فإن لاكان يمنحهم من خلال البلاغة التي يستخدمها في كلامه "المعادل الذي يحاكي لغة اللاوعي"، وهي لغة النكتة والاستعارة والتورية، أي المعادل للخبرة المعاشة في ممارسته كمحلّل ومحلَّل"، ويزعم مؤلف كتاب "لاكان" بالفرنسية بالميه أن "غوامض (أسلوب لاكان) ليست أبدًا نتاجًا للمصادفة، ولكنها نتاج عمل نادر التعقيد. بحيث أن بنية الجملة تستدعي سريعًا بنية الفسيفساء (الموزاييك) إلى حد أن كلّ كلمة فيها تمتلك قيمتها وروعتها" (ص ١٣).

ومن غير المقبول أخيرًا تبرير الغموض في لغة لاكان بالقول أن كفاحه للحيلول دون نقل أفكاره نقلًا سطحيًا وكأنه مجهود متعمد لتأتي هذه الأفكار بصورة غير مفهومة. ويبدو وكأنه يقول لا يمكن أن تفهم أعمالي تدريجيًا إلا بأن تكون قد فهمتها من قبل. فكيف يمكن، مثلًا، أن نفهم من قبل هذا

الآخر Autre الذي يجب تبجيله بحرف كبير؟ كيف يظل هذا المصطلح مفيدًا حين يمكن أن يُعرَّف بتعريفات متنوعة: أب، اللاوعي، لغة، الدال؟ من الأرجح أن يكون الحرف الكبير مستخدمًا ليضفي هالة زائفة من السلطة على خليط مشوش.

تكتسي أعمال لاكان بمظهر صريح من التفاخر النرجسي ساعدتها على اكتساب هيبة هائلة في الثقافة الفرنسية المعاصرة وبالرغم من مساهماته الأساسية التي قدمها في التحليل النفسي، فقد شوه لاكان الفرويدية تشويهًا شديدًا لتبدو في الحياة الفكرية لمجتمع فرنسا أكبر من الأفكار والنصوص الأصلية لفرويد نفسه.

قدم لاكان مداخلة إلى الجمعية الفرنسية للفلسفة في عام ١٩٥٧، بعنوان "التحليل النفسي وتعليمه"، تضمن العرض الموزع على أعضاء الجمعية عبارات ملغزة أشبه بالطلاسم من نوع: "ثمة ذات ضمن الذات، بل ذات متعالية على الذات، تسائل الفيلسوف منذ "علم الأحلام"، "إن المحلل يترك المجال لذلك الآخر (AUTRE) فيما وراء الآخر (autre) من خلال الحياد الذي يكون أيا من الاثنين الموجودين هناك..."، ثم تجري المداخلة بتعابير لا تقل غموضًا عن تعابير العرض بحيث استدعت من الفلاسفة الحاضرين التعبير عن عدم فهمهم لما سمعوه أو طرح التساؤل للاستفهام عمّا سمعوه.

يبدأ لاكان مداخلته التي عنوانها "التحليل النفسي وتعليمه" بتنبيه الفلاسفة الحاضرين بأنه "عندما اسأل: كيف نعلّم ما يعلّمنا إيّاه التحليل النفسي؟" لم أكن أريد إعطاء تمثيل لطريقة تعليمي. ثم يلاحظ بين صفوف الحاضرين "ما يكفي من الفلاسفة لكي أبادرهم بهذا السؤال: ما هو، في رأيهم، ذلك الشيء الذي يعلمنا إيّاه التحليل النفسي، الشيء الخاص به، أو أكثر الأشياء خصوصية..."، ثم يخوض في استعراض يكتنفه الغموض لوجهات نظره النظرية لينتهي في المقطع الأخير من مداخلته إلى مفاجأة الحاضرين بإجابته: "إنّ أية عودة لفرويد يكون موضوعها تعليمًا أهلًا بهذا الاسم، لن تحدث إلا عبر الطريق التي تتجلى عبرها أخفى الحقائق ضمن ثورات الثقافة. هذه الطريق هي التكوين الوحيد الذي بإمكاننا أن ندعي نقله إلى من يتبعونا وتسمى: أسلوبًا".

بعد أن يشكر رئيس الجلسة (بيرجي) لاكان على عرضه ويخاطبه بـ "أنك تدعونا لبذل المجهود الذي سيرفعنا إلى تحليل نفسي معقّد" يعطي الكلام لأحد أقوى داعمي نظريات لاكان المحلّل النفسي لاغاش الذي يناقش رغم ذلك "طريقة (لاكان) في فهم فرويد"، ذلك أنه "عندما يتكلم فرويد عن غرائز

الموت واضطرار التكرار ضمن "وراء مبدأ اللذة" فأنه يفعل ذلك، في أغلب الأحيان، في عرف الواقعية "الطبيعية"، "وعندما يؤوّل السيد لاكان التكرار في ضوء شكلانية منطقية – رياضية، لم يعد الكلام لفرويد، وإنّما للاكان... فأفضل التلامذة ليس دائمًا أكثرهم وفاء".

يتساءل الفيلسوف فال "فيمَ إذا كان عليّ أن أتكلم. فما يفهمه السيد لاكان، لا أفهمه، ويبدو لي أنني أعتقد بأنني أفهم ما يقول أنه لا يفهمه..."، أما الفيلسوف ألكيني فيتساءل بدوره "لا أدري أن كنت قد فهمت ما أراد لاكان قوله فهمًا جيدًا" والسؤال الوحيد الذي طرحه يتعلق "بمعرفة فيم إذا كان كل شيء لغة، وفيم إذا كان العاطفي نفسه، وباعتباره كذلك، لغة"، فيجيبه لاكان "أنني أترك العاطفي جانبًا كما أترك كل الأشياء الأخرى، وهي أشياء جانبية تمامًا في رأيي". ويتساءل ميرلو بونتي "هل حقًا رأى فرويد اللغة والكلام والوظيفة الفلسفية للكلام كما تراها أنت؟ يبدو لي أن الأمر ليس كذلك" و"ينبغي لك أن تدرك أن ما تتكلم عنه لا يشبه ما نعثر عليه ضمن الكثير من نصوص فرويد".

ويلخص الفيلسوف هيبوليت الاختصاصيّ الأشهر بهيغل الموقف برمته بالقول "إنّ الدكتور لاكان، مثله في ذلك مثل سقراط، يخضعنا للتعذيب، ويستعمل اللغة قصد إدخالنا إلى إحراجات جديدة على الدوام، ولست متأكدًا تمامًا من كوني أفهم ما يعنيه أبدًا".

لم يفهمه الفلاسفة، فكيف سيفهمه القارئ العادي؟

والحاصل أنّ أسلوب لاكان التجريدي، المبهم، الملغز، يتقبل تأويلات لا حصر لها لمفاهيمه ونظرياته، وقد أراد من هذا الأسلوب – على ما يبدو – أن يسحر بسطوة غموضه مستمعيه من المريدين ودفعهم إلى الإذعان لأقواله. ولعل هذا المعنى ما حمل أحد اللاكانيين (سرج لوكلير) إلى الدعوة إلى الكف عن "الاستمرار المهووس والمتعامي في إنتاج سلاسل رمزية جديدة من خلال الفذلكة المتناهية لعدتنا النظرية".

خاتمة

تتلوَّن النظرة المتأخرة للنظريات الفكرية بطول تأمُّل لتقلباتها عبر الزمن ما بين صعود وهبوط، كتقلبات الفرويدية واللاكانية. فهاتان النظريتان اليوم في حالة هبوط ملحوظ بعد حقبة صعود صاعق في المشهد الثقافي العالمي في النصف الثاني من القرن الماضي.

وتتلوَّن هذه النظرة أيضًا بمزاج السنّ المتأخر الذي تغزوه حالة من الشك والميل في التفكير إلى عدم اليقين، ويتجلّى هذا الميل في توليد "التساؤلات" وتكثير "المسائل" و "الإشكاليات".

في ضوء هذه النظرة المتأخرة بدا أنّ أهم اكتشافات فرويد يتمثل في دور الدوافع اللاواعية في الحياة النفسية وفي السلوك البشري، كما بدا أن مفاهيم اللاوعي والوعي وما قبل الوعي يمكن أن تفهم كوصف لبناء الذاكرة: الذاكرة الواعية – وقد تسمّى بالذاكرة الصريحة – وهي المحتوى الذي يكون حاضرًا في حقل الوعي ويمكن التعبير عنه بالأقوال، والذاكرة ما قبل الواعية وهي المحتوى الذي يمكن أن يحضر بيسر إلى حقل الوعي، والذاكرة اللاواعية – وقد تسمّى بالذاكرة الضمنية – وهي المحتوى المبعد بصورة جذرية عن حقل الوعي ولا يمكن إحضاره إلى هذا الحقل إلا بطريقة مخصوصة.

لقد أقيم على هذه النظرية ومستتبعاتها العديدة (الكبت، المقاومة، آليات الدفاع ضد القلق، الإزاحة، التكثيف... إلخ) البرهان بالممارسة العيادية وبمراقبة الحياة اليومية، غير أن بعض النظريات الأخرى اعتمد في إقراره على استنتاجات وتأويلات يغلب عليها طابع شخصي، ومنها التخلي عن "نظرية الإغواء" وإحلال نظرية أوديب محلها، ومنها ما يصل إليه بعض المحللين من سبر أغوار الحياة الخيالية لدى الأطفال في سنواتهم الأولى، وهو ما لا يمكن التحقق منه أو إقامة الدليل عليه، هذا فيما لا يجد محللون عقدة "حسد القضيب" في نفسيات مريضاتهم، على حين يجدها محللون آخرون بصفة شبه دائمة..

يرفض لاكان واللاكانيون تصوُّر فرويد الواضح للاوعي كـ "ذاكرة"، ويصرّون على اعتباره "بنية" تشبه اللغة أو ينبني كـ "لغة" comme un langage، ويضعون أحيانًا خطًا تحت un أو بين مزدوجين "un" لسبب غير معروف.

والواقع أن دو سوسور – مرجعية لاكان واللاكانيين – يستخدم تعبير "لغة" – وهي ملَكَة عامة لجميع المتكلمين بألسن مختلفة – كشيء خليط غير متجانس hétéroclite، ولا بد من التمييز فيه بدقة بين مفهوم اللسان Langue (نظام من العلامات) والكلام Parole (التحقيق الفردي للسان).

إذًا، إذا كانت "اللغة" خليط غير متجانس، فما الذي يقصده لاكان بـ "لغة" التي ينبني اللاوعي بها أو بما يشبهها؟ هذا ما لم يوضحه أحد، غير أن كتابًا عن لاكان (Lacan, 1966) يرد فيه: "اللاوعي

ينبني كلغة، أي كنظام دال منظم بالعلاقة دال / مدلول"، والواضح أن الكاتب يتحدث في هذه الفقرة عن "اللسان" حسب نظرية دو سوسور وليس عن "اللغة"، لذلك يستأنف الكاتب الفقرة بعبارة مقحمة دون تسويغ أو توضيح بالقول: "... أو، إذا شئنا، كلسان مخصوص". وعليه، إذا كان اللاوعي كـ "لسان مخصوص" فلماذا يصر اللاكانيون على استخدام ملتبس لتعبير "اللغة".

وعلى ما تقدّم يحسن بنا – في ما يتعلق بنظرية اللاوعي المحورية – ولمجانبة كل هذه الالتباسات التي لا ضرورة لها "العودة" إلى مفهوم فرويد الواضح للاوعي كموقع من مواقع الذاكرة.

لقد استسلم عديد من المحلّلين والجمهور المثقف لسحر كتابات لاكان وأقواله الملغِزة، على حين إنتبه القليلون منهم لتحذير الفيلسوف فينتجشتاين بأنه تحت تأثير هذا السحر "يمكن أن تُخدع بسهولة".

المراجع العربيّة

- سيحمند، فرويد (٢٠٠٣). **تفسير الأحلام**، تر. مصطفى صفوان. مصر: دار المعارف. (نشر العمل الأصلي ١٩٠٠).
- كمال، بكداش (١٩٨٦). **الفرويدية، في كتاب: نظريات في علم النفس: الفرويدية – السلوكية – الجشطالتية**. بيروت: المؤسسة الجامعية.
- الفرويدية، (د.ت.). **الموسوعة الفلسفية العربية**، إشراف معن زيادة، معهد الإنماء العربي، المجلد الثاني، ص ٩٤٠ – ٩٥٨ .
- جفري م. ماسون (١٩٩٦). **فرويد ونظرية الإغواء**، تر. مدحت ميخائيل، **مجلة القاهرة**، (٦)، ٧٨ – ٨٣.
- عبد المقصود، عبد الكريم (١٩٩٩). **جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي**. المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة: مصر.
- جاك، لاكان (٢٠٠٦). **اللغة، الخيالي والرمزي** (مجموعات مقالات للاكان وعنه)، إشراف: مصطفى المسناوي، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- بكداش، كمال (٢٠٠٢). **علم النفس ومسائل اللغة**. بيروت: دار الطليعة.

- مصطفى صفوان (٢٠١٦). **التحليل النفسي: علمًا وعلاجًا وقضية**، تر. مصطفى حجازي. البحرين: هيئة البحرين للثقافة والآثار.

المراجع الأجنبيّة

- Althusser, L. (1994). *Écrits sur la psychanalyse: Freud et Lacan*. Paris: Stock/IMEC.
- Freud, S. (n.d.). *Des sens opposés dans les mots primitifs*. In *Essais de psychanalyse appliquée*. Paris: Gallimard.
- Freud, S., & Lacan, J. (1964–1965). *La Nouvelle Critique*, 161–162, December 1964–January 1965.
- La Peyre, M., & Sauret, M.-J. (1985). *Lacan: Le retour à Freud*. Paris: Les Essentiels, MSLAN.
- Lacan, J. (1966). *Écrits* (2 vols.). Paris: Seuil.
- Lapeyre, M., & Sauret, M.-J. (1985). *Lacan: Le retour à Freud* (Les Essentiels, No. 171). Paris: MSLAN.
- Palmier, J.-M. (1972). *Lacan*. Paris: Éditions universitaires, coll. Psychothèque.
- Saussure, F. de. (1916). *Cours de linguistique générale*. Paris: Payot.